اسم المادة الدراسية عربي : أدب عصور متأخرة .

اسم المادة الدراسية الانكليزي :Literature of Later Ages

اسم المحاضرة : الغزل والوصف في الأغراض الشعرية التقليدية.

اسم التدريسي : أ. د. محمد عويد محمد الساير .

المستوى الدراسي : الثالث .

الدراستان : الصباحي / المسائي .

أدب عصور متأخرة : المحاضرة الثالثة .

الغزل:

الغزل فن ادبي جميل له صلة وثيقة بحياة الرجل والمرأة ، وهو يطالعنا بكثرة في شعر الحقبة التي ندرسها ، و قد افرد له الشعراء قصائد ومقطوعات و استهلوا به النظم في فنونه المختلفة ، ومما يلفت النظر أن جانبا منه لم يأت عن معاناة صادقة ، وإنما جاء تظرفة وملاحة ، فها هو ذا ابن الوردي مثلا - ينظم مئة مقطوعة في الغزل بالمذكر ، ويصرح في واحدة منها انه قالها مجاراة لذوق عصره:

والله ما المرد مرادي وإن نظمت فيهم كعقود الجمان لكن من رام نفاق الذي يقوله ينظم خرج الزمان ثم يورد مئة مقطوعة في مئة جارية سماها «الكواكب السارية في مئة جارية»، قال في مقدمتها : «أما بعد حمد لله وشكره ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وحزب نصره ، فقد شفعت الكلام ، على مئة غلام ، بالكواكب السارية ، في مئة جارية ، ونظمتها في احسن سلك ، وقلت للمعترض هذه بتلك ، وبالله التوفيق والاعتصام ، ومن هنا شرعت في الكلام» ، منها قوله في مليحة اسمها مي :

قلت لميّ أنا في حبكم ... ميت فدتك النفس من مي
ترين ماذا في، قالت: أرى ... أن (يخرج الميت من الحي)

وقال في مليحة ، على الأنف المعنى:

قالت : حكى لي شخص ... ما قلت ، قلت : كذوب
قالت : فذلك عدل ... في النقل ، قلت : أتوب

إنَّ هذا الشعر البارد - كما يبدو - قاله ليتحلى بلفظه ويزين به ديوانه ، فهو مصنوع من غير قلب يخفق ، او جنان يحس ؛ ولذلك لا ينجذب اليه القارىء ولا يردده كما يردد الشعر الغزلي الممتع الصادر من نفوس هائمة في محراب الجمال عشقاً ووجداً ... وكانت قدرة بعض الشعراء عالية في نظم الغزل المصنوع ، بلغة رقيقة مستملحة ، من ذلك الأبيات الآتية للشيخ قطب الدين محمد بن علاء الدين احمد النهرواني (ت ٩٩١هـ):

أقبل كالغصن حين يهتزْ ... في حلل دون لطفها الخزْ
مهفهف القد ذو محيا ... بعارض الخد قد تطرزْ
دار بخديه واو صدغ ... والصاد من لحظه تلوزْ
الخمر والجمر من لماه ... وخده ظاهر ومُلغزْ

ولما سمع الشاعر محمد بن إبراهيم المعروف بابن الحنبلي (ت ٩٧١هـ) هذه الأبيات استحسنها وعارضها بقصيدة ، ولكنها فاترة لا يخفى ما فيها من التكلف على من له أدني ذوق ، ومطلعها:

مـــا الفتـــى للجمـــال أبـــرز قـــد فـــتن العـــالم المحيـــزْ

وعلق عليها الشيخ نجم الدين الغزي صاحب كتاب الكواكب السائرة :(قد تحمل ابن الحنبلي في معارضته قطب الدين ما لا يطاق ، وجاء فيه من التكلف بما لا يخفى على ذوي الأذواق ، فسبحان من قسم العقول بين عباده والأخلاق والأرزاق ، ولما وقفت على ابياته عن لي ان انتصر لقطب الدين وأعارضه معارضة ، ولعل الدهر دول تتداول بين الناس ومقارضة) ، وقصيدة الغزي اولها :

ســبحان مــن للوجــود ابــرز رشــا بحكــم الهــوى تعــززْ
زاد علـــى الـــرئم فـــي دلال وعـــن جميـــع المهـــا تميـــزْ

وهكذا نظم هؤلاء الشعراء الثلاثة قصائدهم الزائية في بحر قصير الوزن و قافية موسيقية تصلح للإنشاد والغناء دون أن يكون هناك محبوب حقيقي اضناهم حبه واسقمهم هواه.

ومثل هذا الغزل كثير جدا ، يعود فيه الضمير على المذكر ، ويبدو أن احتجاب المرأة وحجرها في دارها ، وعدم السماح لها بمخالطة الرجال ومجالستهم حتى المقربين منها منع الشعراء من التغزل بها صراحة، تحفظاً لسمعتها ، وخشية من اهلها.

ولا يخفى على القارئ أن فريقا من الشعراء ، اقول فريقا ؛ لأنني لا ابرئ الجميع ، خاطب المذكر واراد به المؤنث ، فوصفوا الغلام في اعضائه كما توصف المرأة في قدها وخدها وخصرها وردفها وثناياها وشعرها وجيدها وعينيها ، حتى في غنجها ودلالها ، ووصفوا الوجد والهيام والترصد واللحاق كما وصفها المتيمون في حب النساء ، و لكنهم لم ينحدروا إلى المعاني المبتذلة التي نجدها عند ابي نواس ، ومطيع بن إياس ، وابن سكرة الهاشمي ... فهذا ابن نجا الضرير الإربلي (ت ٦٦٠هـ) يبث شكواه من الحبيب الذي اصم أذنيه وكأنه لا يسمع بعد أن وقع اسير سجنه الذي لا يبرح عنه ، فالبغض سجيته ، والقسوة طبيعته ، وقد نفد صبره ، وتزاحم وجده:

تـــذللت لـــو أن التـــذلل ينفـــعُ وافرطـــت فـــي الشـــكوى لـــو انـــك تســـمعُ
وامســـى خضـــوعي للحبيـــب ســـجيتي وهـــل نـــافعي للحـــب انـــي اخضـــعْ؟
ومـــن عجـــب انـــي بحبـــك مولـــع وانـــت بغضـــي والقطيعـــة مولـــعُ
نصـــيبك منـــي الحـــب والوصـــل كلـــه ومنـــك نصـــيبي الـــبغض والهجـــر أجمـــعُ

وكثيرا ما نجد معاني الشعراء وصورهم مكررة و متداولة ؛ أي لا اصالة فيها ولا ابداع ، من ذلك مثلا قول حسن بن محمد البوريني (ت ١٠٢٤هـ):

أحـــول وجهـــي حـــين يقبـــل عامـــداً مخافـــة واش . بينـــا ورقيـــب
وفـــي بـــاطني - والله يعلـــم – اعـــين تلاحظـــه فـــي أضـــلع وقلـــوب

وهذا ما نجده في قول ابي عبادة البحتري:

اجنــو عليــك وفــي فــؤادي لوعــة واصــد عنــك ووجــه ودي مقبــلُ

ولم يكتف الشعراء في هذا العصر بالالتفات إلى معاني الشعراء القدامى الكبار والاتكاء على صورهم واخيلتهم، بل راحوا يعارضون قصائدهم المشهورة او يخمسونها ، مثل قصيدة الشريف الرضي الكافية المشهورة التي يقول في مطلعها:

يــا ظبيــة البــان ترعــى فــي خمائلــه ليهنــك اليــوم أن القلــب مرعــاك

وقد احسن في معارضتها ابو اسحاق مخلص الدين ابراهيم بن محمد بن هبة الله الخزاعي (ت ٦٧١هـ) ، فقال في مقدمة قصيدته:

يــا جنــة الطــرف نــار القلــب مــأواك ومــا توقــدها مــن بــرد ذكــراكِ
ويــا مهــاة الــدمي كــل الــدماء لكــم حــل ، فمــن بحــرام الفتــك افتــاك حاشــاكِ
يــا ظبيــة الأنــس التــي افترســت اســد العــرين مــن التــأثيم حاشــاكِ

ويطيل ، بحسن بيان وجودة عرض ، في وصف معاناة فؤاده المعذب يهوى حسنائه الرشيقة في قدها الوسيمة في جيدها ومحياها ، ثم يستعطفها أن ترأف به وتأخذ بيد المصافاة بدلا من المجافاة :

فعطفــه يــا منــاه وارحميــه فمــن يمتــه طرفــك لا يحييــه إلاكِ
وواصــليه فقــد أودى الصــدود بــه وعامليــه بــلا مطــل بحســناكِ
فــالله يشــكر مســعاك لديــه غــداً إذا شــكرت مســاعي الوالــه البــاكي

وثمة معارضة أخرى لطيفة لابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ) سنذكرها في ترجمته. ونكتفي هنا بمطلعها:

طربــت عنــد ســماعي وصــف مغنــاكِ فكيــف لــو كــان هــذا عنــد مغنــاكِ

وشاعت آنذاك المخمسات الغزلية وكثرت، وهي في الغالب تعتمد على شعر الشعراء المشهورين السابقين ، وقد أحسن بعضهم وأجاد في نظمها بناء و معنى ، من ذلك مثلا مخمسة جلال الدين محمد بن عمر (ت ٩١٦هـ) الأبيات مشهورة للشاب الظريف محمد بن عفيف الدين سليمان:

غبــتم فطــر فــي مــن الأجفــان مــا غمضــا ولــم أجــد عــنكم لــي فــي الهــوى عوضــا
فيــا عــذولا بفــرط اللــوم قــد نهضــا للعاشــقين بأحكــام الغــرام رضــا
فــلا تكــن يــافتي بالعــذل معترضــا
إن الــوفي بعهــد لــيس ينــتقض وإن همــو نقضــوا عهــدي وإن رفضــوا
فقلــت لمــا بقتلــي بالأســى فرضــوا روحــي الفــداء لأحبــابي وإن نقضــوا
عهــد الــوفي الــذي للعهــد مــا نقضــا

الوصف :

الوصف ركن أساس من أركان الشعر العربي ، وقد أصاب ابن رشيق القيرواني في قوله : (الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف)، فإننا نجده في شعر المديح والرثاء والهجاء والغزل ... إلى جانب الشعر الخالص في الوصف.

وقد ألم الشعراء في الوصف بكل شيء وقعت أعينهم عليه في دورهم وقصورهم من حاجات .. وفي مدنهم وقراهم من بساتين وأزهار وثمار وأطيار وأنهار .. وفي سمائهم من كواكب وسحب وأمطار .. وفي ديارهم من حيوانات أليفة وكاسرة ، وحشرات مضرة ونافعة ... - و تفاوت الشعراء كثرة وقلة في الوصف ، وقد بلغ مجير الدين ابن تميم (ت ٦٨٢ هـ) القمة في كثرة والنوعية . فإنه كان عاشقا لكل جميل في الطبيعة أيما عشق ، وكثيرا ما كان يتردد مع أصحابه على الرياض والمنازه والمياه الجارية .. وقد وصلت إلينا عشرات المقطوعات من نظمه يمكن أن نطلق عليها (الزهريات)، مثل قوله في النيلوفر:

ونيلوفر كالزهر شكلا ومنظراً محاسنه فيها اللواحظ ترتعُ
وكل نجوم لكن الفرق أنها تغيب صباحا وهي في الصبح تطلعُ

إنه امتزج بمشاعره وأحاسيسه مع الزهور والرياحين ذات الألوان البهية والروائح الشذية ، ووقف أمامها يتأملها بنظراته ، ويتحدث معها حديثة رقيقة عذبة شبيهة بحديث المولهين بمعشوقاتهم:

كيف السبيل للثم من احببته في روضة للزهر فيها معركُ
مابين منثور وناظر نرجس مع اقحوان وصفه لا يدركُ
هذا يشير بإصبع وعيون ذا ترنو اليه وثغر هذا يضحكُ

ومن مداعباته اللطيفة مع غصن البان والنرجس:

تفتش غصن البان أذنابه وماس عند الصبح زهوا وفاحْ
وقال : هل في الروض مثلي وقد تعزى إلى مثلي قدود الملاحْ

وله في مشاهد الطبيعة مقطوعات كثيرة تصف الجداول والبرك والنافورات والدواليب ، نكتفي منها بهذين البيتين:

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى ودمعهما بين الرياض غزيرُ
كأن نسيم الروض قد ضاع منهما فأصبح ذا يجري وذاك يدورُ

ويذكرنا مجير الدين بن تميم في هذين البيتين بقصائد ومقطوعات قيلت في النواعير التي شاع استخدامها آنذاك على الأنهار لسقي الزروع ، ولا سيما في حماة ، منها قصيدة نور الدين علي بن محمد العسيلي (ت ٩٩٤هـ) المؤثرة الرائعة التي بناها على غرار القصص القصيرة التي تنتهي بعبر نافعة ومواعظ بليغة :

ودولاب مررت به سحيراً يئن كأنه الصب المروعِ
غدت أضلاعه تنعد سقماً ويفني جسمه صب الدموع

يبـــدو كمـــن أضـــل الإلـــف منـــه وذاق تشـــتت الشـــمل الجميـــعِ
فقلـــت لـــه : فـــديتك مـــن كئيـــب كســـاه الهـــم أثـــواب الخشـــوعِ

لقد اشتملت القصيدة على معان لطيفة في صورة جذابة مرسومة بقلم دقيق و فكر عميق ، تستجذب من يتأملها وتستوقف من يتأنى في استكناه مرادها «صورة عاشق ولهان ، يتألم ويتوجع ويتأوه من ألم العشق وشدة الوجد ، وعنف الغرام ، حتى اعتل" وساءت صحته ونحل جسمه ، فظهرت ضلوعه بحيث يمكن رؤيتها ، ويسهل عدها ، وكاد جسده يفنى من غزارة الدموع التي يسكبها ، و من الحزن الذي ألم به، وهو لا ينقطع عن الدوران كأنه يبحث عن حبيب فقده ، ثم وقف الشاعر أمامه يسأله عن سبب بكائه الدائم ونواحه وعويله ، وقال : إن أنين الدولاب الحزين قد قرب إليه حزنا كان بعيدا عنه ، وأعاد إلى ذهنه ذكريات أليمه كان قد نسيها ، وبذلك سبب له أرقة مستمرة ، وطرد النوم عن عينيه .

ومن الشعراء الذين هاموا بجمال الطبيعة ، ومتنزهاتها عبدالرحمن بن محمد الملقب بابن النقيب (ت ١٠٨١هـ) مثل قوله في الرياض البهجة ، مستخدما تشبيهات متوالية لتقريب صورها من القارئ :

وريـــاض مختالـــة مـــن ثراهـــا فـــي بـــرود مـــن زهرهـــا
وكـــأن الغصـــون فيهـــا عـــذارى تتبـــارى زهـــوة بحســـن

و من مستجدات هذا العصر وصف القهوة بشكل ملفت للنظر، وقد قيل إن أول من اهتدى إليها العالم الزاهد المتصوف أبو بكر بن عبدالله المعروف بالعيد روسي (ت ٩١٤هـ) ، قال الشيخ نجم الدين الغري : ((وهو مبتكر القهوة المتخذة من البن من اليمن ، وكان أصل اتخاذه لها أنه مر في سياحته بشجر البن على عادة الصالحين ، فاقتات من ثمره حين رآه متروكة مع كثرته فاتخذه قوت و طعام وشرابا ، وأرشد أتباعه إلى ذلك ، ثم انتشر في اليمن ثم بلاد الحجاز ، ثم الشام ومصر ، ثم سائر البلاد ، واختلف العلماء في أوائل القرن العاشر في القهوة وفي أمرها حتى ذهب إلى تحريمها جماعة ترجح عندهم أنها مضرة .. والاكثرون ذهبوا إلى أنها مباحة)) لأنها ليست مسكرة ولا مضرة ونظموا القصائد والمقطوعات في مدحها والإشادة بمزاياها ومن هؤلاء إبراهيم بن المبلط في قوله:

يـــا عائبـــاً لشـــراب قهوتنـــا التـــي تشـــفي شـــفاء الـــنفس مـــن أمراضـــها
أو مـــا تراهـــا وهـــي فـــي فنجانهـــا تحكـــي ســـواد العـــين وســـط بياضـــها؟

وقوله :

يقـــول عـــذولي قهـــوة الـــبن مـــرة وشـــربة حلـــو المـــاء لـــيس لهـــا مثـــل
فقلـــت علـــى مـــا عبتهـــا بمـــرارة قـــد اخترتهـــا فـــاختر لنفســـك مـــا يحلـــو

وكان للحيوان - الأليف منه والمتوحش - نصيب في شعر الوصف، وأغرب ما وصل إلينا قصيدة لأبي حيان الأندلسي ، وصف فيها التمساح ، الذي رآه في النيل بصعيد مصر ، وهو - في نظره - غريب الشكل ، قوي مخيف كالأسد ، وسريع كالعقاب في اختطاف الفريسة وتمزيقها ، ومن صفاته أنه يجري في الماء و فوق اليابسة على السواء ، ويدفن بيضه في الرمال إلى حين يخرج منها صغاره ، ويفتح

فمه أحيانا ليقف الطير على أسنانه ملتقطة ما بقي بينها من طعام ، وهو لا يخشى من أحد إلا الجاموس ، فإنه يفر منه فرار حالما تتمتع عينه عليه ، يقول في القصيدة:

وخلــق غريــب الشــكل فــي مصــر ناشــئ ومــا هــو فــي أرض ســوى مصــر يوجــدُ
هـــو الســـبع العـــادي بنيـــل صـــعيدها يقـــافص مـــن المـــاء فـــي النيـــل يقصـــدُ
ويخطفـــــه خطـــــف العقـــــاب لصـــــيدها ويفصـــــله عضـــــوة فعضـــــوة ويـــــزردُ
ومـــا مـــن شـــخوص النيـــل خلـــق لـــه يـــد ورجـــل ســـواه وهـــو فـــي البـــر يصـــعدُ

وثمـة شـعراء وصـفوا اشـياء لا تهتـز لهـا النفـوس ولا تهفـو لهـا القلـوب ، مثـل قول احدهم في وصف فانوس:

انظـــر إلـــى الفـــانوس تلـــق متيمـــاً ذرفـــت علـــى فقـــد الحبيـــب دموعُـــهُ
أحيـــا لياليـــه بقلـــب مضـــرم وتعـــد مـــن تحـــت القمـــيص ضـــلوعُهُ

وقول شهاب الدين بن الخيمي (ت ٦٨٥هـ) في وصف سبحة سوداء:

ومســـبحة مســـودة ، لونهـــا يحكـــي ســـواد القلـــب والنـــاظرِ
كـــأنني عنـــد اشـــتغالي بهـــا اعـــد أيامـــك يـــا هـــاجري

وقـول شـمس الـدين محمد بـن ابـراهيم العبـدلي المشـهور بـابن المـزين (ت ٨١١هـ) في وصف دواة:

أنـــا دواة يضـــحك الجـــود مـــن بكـــا يراعـــي جـــل مـــن قـــد بـــراهْ
دلـــوا علـــى جـــودي مـــن مســـه داء مـــن الفقـــر فـــإني دواهْ